مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(عبرانيين ٤: ١٤–١٦؛ ٥: ١–٦)

يا إخوةُ إذ لنا رئيسُ كهنةٍ عظيمٌ قد اجتازَ السمواتِ يسوعُ ابنُ اللهِ فلنَتَمسَّكْ بالإعترافِ* لأن ليس لنا رئيسُ كهنةٍ غيرُ قادرٍ أن يرثيَ لأوهانِنا بل مُجرَّبٌ في كلّ شيءٍ مثلَنا ما خلا الخطيئةَ* فلنُقبِلْ إذاً بثقةٍ إلى عرشِ النِّعمةِ لننالَ رحمةً ونجدَ ثقةً للإغاثةِ في أوانِها* فإنَّ كلَّ رئيسِ كهنةٍ مُتَّخذٍ من الناسِ يُقامُ لأجلِ الناسِ فيما هو للهِ ليُقرِّبَ تقادِمَ وذبائحَ عن الخطايا في إمكانِه أن يُشفِقَ على الذينَ يجهلونَ ويَضِلُّون لكونِه هو أيضاً متلبِّساً بالضُّعفِ* ولهذا يجبُ عليه أن يُقرِّبَ عن الخطايا لأجلِ نفسِه كما يقرِّبُ لأجلِ الشعبِ* وليسَ أحدٌ يأخُذُ لنفسِه الكرامةَ بل مَن

أحد السجود للصليب

الصليب هو استعلان محبّة الله للبشر، وباكورة انتصار الإنسان، بنعمة الله، على كلّ خطيئة وهوى وضعف بشري وموت. لذا رتبت الكنيسة وقوع عيده وسط الصوم الكبير، كعمود الأساس لكلّ بنيان جهاد اقتناء الفضائل المسيحيّة والمسعى الروحي إلى التوبة والتنقّي والاتحاد بالله خلال فترة الصوم الأربعيني المقدّسة.

وعيد السجود للصليب هذا، الذي تذكره مخطوطات كتاب التريودي القديمة، هو المناسبة الثالثة في السنة الطقسيّة التي نكرّم فيها «العود المحيي». يأتي ليكمّل العيد الأول لرفع صليب المسيح (في ١٤ أيلول) يوم عثرت عليه القدّيسة هيلانة المعادلة الرسل، والعيد الثاني لتزييح الصليب (في ١ آب) تذكاراً لانتصار الإمبراطور الرومي هيرقليوس على الفرس واسترجاعه الخشبة المقدّسة إلى مدينة أورشليم عام ٦٣٠. وتنسب المصادر التاريخيّة هذا التعييد الثالث إلى نقل ذخيرة من صليب الرب من أورشليم إلى مدينة أفاميا (في سوريا) لمناسبة تشييد كنيسة كبرى فيها وتكريسها زمن ميتروبوليتها ألفيوس. وقد خصّ القديس جرمانوس المعترف (+٧٤٠) هذا العيد بعظة، كما أنّنا نجد في كتب التيبيكون، المنسّقة لطقوس العبادات في الكنائس والأديرة في الشرق المسيحي، شهادات وتفاصيل وفيرة عن كيفيّة الإحتفال بهذا العيد وإكرام الصليب الكريم خلاله والسجود له.

العدد ٢٠٠٨/١٣
الأحد ٣٠ آذار
الأحد الثالث من الصوم
أحد الصليب الكريم المحيي
تذكار أبينا البار يوحنا السلمي
كاتب سلّم الفضائل
اللحن الثالث
إنجيل السَحَر الحادي عشر

وللصليب مكانة خاصة في فكر كنيستنا. إنه، في الوقت ذاته، الأداة المقدّسة لتضحية المسيح، وعلامة «الحكمة الإلهيّة» التي تضبط الخليقة وتسود الكون. سرّ الصليب قائم في قلب تاريخ البشر إلى أن يأتي السيد بمجد ملكوته.

والصليب يكرَّم في وسط الصوم الكبير، رمزاً لتمركزه وسط الزمان ووسط العالم. منه وبه تحيا وتتحرّك البرايا كلّها، وهو وحده يعطي المعنى لأزمنة الناس ولامتداد وجودهم في أصقاع الأرض، ويضمّ البشر المشتّتين بالخطيئة، في وحدة جسد المسيح: الكنيسة. بسط السيّد يديه على الصليب فجمع الشعوب المتفرقة

دعاهُ اللهُ كما دعا هرون* كذلكَ المسيحُ لم يُمجِّدْ نفسَهُ ليصيرَ رئيسَ كهنةٍ بل الذي قالَ له أنتَ ابني وأنا اليومَ ولدتُك. كما يقولُ في موضعٍ آخرَ أنتَ كاهِنٌ إلى الأبدِ على رتبَةِ مَلكيصادَق.

الإنجيل

(مرقس ٨: ٣٤–٣٨؛ ٩: ١)

قال الربُّ مَن أراد أن يتبعَني فليكفُرْ بنفسهِ ويحملْ صليبَهُ ويتبعني لأنَّ مَن أراد أن يخلّصَ نفسَهُ يُهلِكُها ومَن أهلكَ نفسَهُ من أجلي ومن أجل الإنجيل يخلّصُها* فإنَّهُ ماذا ينتفِعُ الإنسانُ لو ربحَ العالمَ كلَّهُ وخَسِرَ نفسَهُ* أم ماذا يُعطي الإنسانُ فِداءً عن نفسهِ* لأنَّ مَن يستحيي بي وبكلامي في هذا الجيلِ الفاسقِ الخاطئ يستحيي به ابنُ البشر متى أتى في مجد أبيهِ مع الملائكةِ القديسين* وقال لهم الحقَّ أقول لكم إنَّ قوماً من القائمين ههنا لا يذوقون الموتَ حتى يَرَوْا ملكوتَ اللهِ قد أتى بقوَّةٍ.

في زوايا الأرض الأربعة، واقتادهم إلى معرفة الله. واستعاد «الحملُ المذبوحُ» عناصرَ الكون المفسَدة بالشر، كونه كلمة الآب الأزلي الخالق والمحيي.

وما انغراس عود الصليب في وسط الصيام إلا نوع من الاستباق لغاية الصوم ومعناه الأسمى أي الشركة مع المسيح السيّد في آلامه وموته وقيامته. وفي هذا الدنو من سرّ الخلاص قِسط من التعزية لمن من الصائمين بدأ يتحسّس شيئاً من الوهن أو الفتور في جهاد التوبة وتجديد المحبّة، من بعد ثلاثة أسابيع من المثابرة. فالعيد تذوّق خَفِر للخيرات الروحيّة التي يهبها الروح القدس للمجاهدين، لكيما يثبتوا في مسيرة الفصح ويضاعفوا عزمهم. الصليب يطلّ في وسط الصيام كشجرة حياة جديدة في وسط الفردوس. وهو «المرشد» في الفترة المتبقيّة من «ميدان الجهاد»، ومصدر القوّة والتجلّد للمضي قدماً في سيرة التوبة.

الصليب ركن للفضائل المسيحيّة التي يحتاجها المؤمن للتمكُّن من الدخول إلى سرّ الفصح. هو «عصا موسى المحوّلة المياه المرّة إلى عذوبة»، «ثبات المؤمنين» و«عزاؤهم»، ومُلهم كلّ شجاعة وصبر. وهو السلطان الذي أُعطي لطبيعة الأنام على بوّابي الجحيم وأغلال الموت. به حظينا بإمكانية التوبة والرجوع إلى الله. فبات الوسيلة والسبيل للتحوّل من الظلمة إلى النور ومن الأهواء المعابة إلى فضائل المسيح. هو ظهور البُعد الفصحي لحياة التوبة المسيحيّة الذي عليه يقوم سرّ التدبير الإلهي.

وتبرز الكنيسة بدءاً من هذا اليوم تماهياً حقيقيًّا للصوم والنسك والفضائل مع «الحياة بالمسيح» والاستعداد لمجيء الختن. بدءاً من الأسبوع الرابع من الصوم، يحضر صليب المسيح بقوّة في الكنيسة ليسند المؤمنين الذين يكرّمونه ويعينهم، ويحدّد أتعابهم بأنّها «صلب روحي»، يسبق ليعلن، بشكل مباشر، الأسبوع العظيم المقدّس.

ولطالما كان الأحد الثالث من الصوم الفرصة الأخيرة أمام الموعوظين لتسجيل أسمائهم على قائمة المعتمدين في سبت النور. فيُغلَق الباب، من بعد هذا اليوم، أمام من يطلب الاندراج في عداد «المستعدّين للإستنارة». إكرام الصليب هو إذاً نداء من الكنيسة وفرصة للمؤمنين ليؤكّدوا استعدادهم للاتحاد بالمسيح. هم يلتصقون الآن، بملء حريّتهم، عبر النسك والجهادات الطوعيّة والأخلاقية بآلام السيّد، لكيما ينالوا في أسبوع الآلام اشتراكاً كيانيًّا سرّياً بموته وقيامته.

أمّا طوافنا هذا اليوم بالصليب محفوفاً بالأزهار، فما هو إلاّ علامة الفرح الذي يلازم مسعى الصيام، والذي دخل بالصليب إلى العالم ليمسح كل دمعة من عيون البائسين، ويبدّد كلّ حزن وألم من قلوب الذين يضعون رجاءهم على قوّته المحيية. الصليب فرح الملائكة وأساس الغبطة التي تشرق في قلوب المسيحيين يوم القيامة المجيد. وهو علامة مجيء المسيح الأخير، الذي سيعطي معنى لوجودنا على الأرض.

حول الإنجيل

السيّد يستعد لمغادرة الجليل والانطلاق إلى أورشليم. يسأل

تأمل

يحتلّ الصليب مقاماً جوهرياً في السنة الطقسية وخاصة خلال فترة الصوم حيث كُرّس له العديد من الطروباريّات. إنه العلامة لتنازل المسيح ولمحبته الفدائية للبشر. يُلخّص فيه كل التدبير: الآلام والقيامة. انه الريشة التي بواسطتها خطّ المسيح صَكّ تحريرنا. هو فخر الكنيسة، الحارسُ للمسيحيين، المجد والقوّة لكل المسكونة.

الارتباط العميق الذي بين الصليب، كلّ صليب، والمسيح جعل منه أيقونةَ الأيقونات وحتى المكان نفسه لحضور المسيح بمحبته الخلاصية للبشر. لذلك يجب تكريمه دائماً قدر المستطاع، وأن ترسم بإشارة الصليب كلُّ أعمال حياتنا وكلُّ أقطار العالم لكي يظهر حبُّ المسيحي المؤمن تجاه المصلوب والغلبة التي يملكها هذا الأخير على كل شيء. إنّ تكريم الصليب في نصف هذا الصوم – بعد أن ذكرنا في أحد الأرثوذكسية انه ليس عبادة أوثان بل يعود إلى الأصل – يتّخذ قيمةً ذات أهمية كبيرة.

إن الصليب مصحوب بزياح على مثال القرابين السابق تقديسُها (على تلاميذه، بعد جولاته المتكرّرة في الجليل وبعد ما قام به من آيات وما زوّدهم به من تعليم: «وأنتم مَن تقولون إنّي أنا» (مر ٨: ٢٩).فيُعلن بطرس أنّه المسيح. لكنّ التلميذ ما يلبث أن ينتهر معلّمه، حين راح ذاك يبيّن أنّ مسيانيّته من نوع آخر. المسيّا، أو المسيح، هو ممسوح الله، أي الملك اليهوديّ الذي كان يُمسح بالزيت دلالةً على أنّ الله فوّض إليه سلطة رعاية شعبه. لقد انتشى كثيرون بكلام يسوع وتوقّعوا أن يصبح ملكاً أرضيًّا يقهر السلطة الرومانيّة على يهود فلسطين، ويعيد المُلك إلى إسرائيل. ولعلّ بعض التلاميذ كان يمنّي النفس أيضاً بنهاية لقصة يسوع من هذا النوع، نهاية انتصاريّة تؤدّي إلى قلب الموازين السياسيّة وطرد الرومان من اليهوديّة. التلاميذ، في أيّ حال، ما كانوا يتوقّعون أن تنتهي مسيرة معلّمهم بتعليقه على الخشبة بين اللصوص. أمّا يسوع فكان مزمعاً أن يفجّر هذا المعنى التقليدي للملكيّة من الداخل. ستُوجَّه إليه تهمة سياسيّة. ستسلّمه السلطة الدينيّة اليهوديّة إلى الحاكم الروماني بحجّة أنّه ادّعى أنّه «ملك اليهود». والرومان حريصون على ألاّ يكون هناك ملك سوى قيصر. جريمة من هذا النوع عقابها الصليب لكلّ من لا يحمل المواطنيّة الرومانيّة. لكنّ من يقرأ الأناجيل يستنتج أنّ يسوع ملك، رغم أنّ صورة ملكيّته لا تتطابق وما كانت تنتظره منه جموع الرازحين تحت وطأة النير الروماني. والحقّ أنّ ملكيّة يسوع لا تستند إلى العنف، بل إلى اللاعنف: «قولوا لابنةِ صهيون هوذا ملِكُكِ يأتيكِ وديعاً راكِباً على أتانٍ وجحشٍ ابنِ أتانٍ» (متى ٢١: ٥). وعرشه ليس كالعروش، بل هو صليب معدّ ليستقبل اللصوص والخارجين عن القانون. يسوع يدشّن، إذاً، باقتباله أن يسمَّر على عود الصليب ملكيّةً من نوع آخر، ملكيّةً يموت فيها الملك في سبيل رعيّته، عوض أن يتسلّط عليها. ملكيّةً يصير فيها الملك ضحيّةً، لا جلاّداً، ذبيحةً، لا ذابحاً.

الأكيد أنّ يسوع لم يرد يوماً أن يؤسس مملكةً أرضيّةً على شاكلة ممالك البشر التي تزدهر ثم تندثر. أليس هو القائل، في حواره مع الحاكم الروماني، بحسب رواية الإنجيليّ يوحنا: «مملكتي ليست من هذا العالم. لو كانت مملكتي من هذا العالم لكانَ خُدَّامي يُجاهدونَ لكي لا أُسلَّمَ إلى اليهودِ» (يو ١٨: ٣٦)؟ أليس هو مَن بشَّر في الجليل، يوماً بعد يوم، باقتراب ملكوت الله؟ لقد أراد يسوع أن يملك الله أبوه في واقع البشر: «ليأتِ ملكوتك» (متى ٦: ١٠). وعلّم أنّ ما كان يقوم به هو من آيات إنّما هو، بمعنًى ما، تدشين لهذا الملكوت. غير أنّ تلاميذه، بحسب شهادة الأناجيل، لم يفهموا كثيراً. لقد استحوذت عليهم صورة الملك الأرضيّ الذي سيُخضع المحتلّ الروماني ويعيد الدولة اليهوديّة إلى زهوها القديم. وها هو، في بدء المقطع الإنجيليّ الذي يتلى اليوم على مسامعنا، يولجهم في سرّ الاتّباع الحقيقي، الذي لا ينحصر في السير وراء معلم هائم بين الناصرة والمدينة المقدّسة، بل هو أيضاً تقبّلٌ للصليب: «مَن أراد أن يتبعني، فليكفر بنفسه ويحمل صليبه ويتبعني». طبعاً، يسوع لا يشترط على تلاميذ أن يحملوا صليبه هو. فلكلٍّ منهم صليبه. لكنّ كلام يسوع، ذا الطابع

رأس الكاهن). وهو يبرز في الكنيسة كظهور حقيقي، والخدمة تبدأ تحديداً مع قطعة ترتيل لدخول القرابين المقدسة في الليتورجية السابق تقديسها: «الآن الأجناد الملائكية تواكب العود الموقّر وتحيط به بورع وتدعو كلّ المؤمنين إلى السجود. فهلمّ نتلألأ بواسطة الصيام، ساجدين أمامه بالفرح والخوف وصارخين بإيمان: إفرح أيها الصليب الموقر، يا ثباتَ العالم.

حضور الصليب هذا والاحتفال الكبير بخدمة التكريم تُظهر جلياً أنه بالنسبة إلى اللاهوت الأرثوذكسي الصليب والأيقونات ورفات القدّيسين إنما هي «أسرار» حقيقية أي وسائل فعّالة للإشتراك في سرّ حضور المسيح الدائم في الكنيسة: أقنومياً في الأيقونة، وجوهرياً في الإفخارستية، بحيث أن تكريمَ الصليب هو في الأساس اشتراك مسبق بآلام المسيح وبقيامته غير المنفصلين أحدهما عن الآخر.

الراهب مكاريوس الآثوسي

القاسي، عن الكفر بالنفس وإهلاكها من أجل خدمة الإنجيل يمكن عزوه إلى ما سيلاقي أتباعه، بعد موت سيّدهم وقيامته وارتفاعه، من اضطهاد قد يفضي إلى الموت. الصليب قائم، إذاً، في قلب إنجيل يسوع. ولا اشتراك في مملكته، التي لا تشبه ممالك أهل الأرض، إلاّ عبر المرور بالصليب.

بيد أنّ معنى الصليب لا يقتصر على ما لاقاه المسيحيون الأوّلون من اضطهاد. فالصليب، أيضاً، تاج الكنيسة. لذا، نجده يعلو الأيقونسطاس موحياً بأنّ الكنيسة الحيّة، التي يرمز المعبد المسيحيّ إليها، تنبثق منه. وهو، فضلاً عن ذلك، المبدأ الذي يرافق المؤمنين في مسيرة الصوم. طبعاً، هم يذهبون إلى الصليب، بمعنى أن الصوم يقودهم إلى تذكارات آلام المسيح وموته. لكنّهم أيضاً يأتون من الصليب، لأن كلاً منهم تغطّس، ذات يوم، في جرن المعموديّة واقتبل ختم صليب يسوع في قلبه: «أَمْ تَجهَلونَ أنّنا كُلَّ مَن اعتَمدَ ليسوعَ المسيحِ اعتَمَدنا لموتِه، فدُفِنَّا معه بالمعموديَّةِ للموتِ» (رو: ٣-٤). وإذا كان الصليب بداءة حياة المسيحيّ ونهايتها، فهو يتوسّط، أيضاً، هذه الحياة، لكون المؤمن مدعوّ، يوماً بعد يوم، أن يأتي عقله وذهنه وقلبه وكلامه وسلوكه ممهوراً بصليب يسوع. حيال هذا، ليس من المستغرب أن تكون الكنيسة قد اختارت الأحد الثالث من الصوم، أي وسطه، لتذكير المؤمنين بالحضور المركزيّ للصليب في حياتهم، ولا سيّما خلال الصوم الكبير.

ينخرط المؤمنون في سرّ الصليب بالمحبّة. هذه هي قاعدة حياتهم سواء أعاشوا في زمن اضطهاد أم لا. فالمحبَّة التي يكنّونها ليسوع هي ما يسوقهم إلى الشهادة من أجل اسمه وإلى الاستشهاد، إذا اقتضى الأمر. وتنعكس هذه المحبّة ليسوع محبّةً للآخرين ورحمةً ولطفاً. فمن اتّخذ الصليب نبراساً، سعى إلى معانقة البشر جميعهم بالمحبّة، ولا سيّما مسحوقي الأرض ومرذوليها، الذين كان يسوع عشيرهم. ومن النافل القول أنّ زمن الصوم الكبير زمن الجهاد الروحيّ بامتياز، هو المناسبة الأعظم لإظهار فيض هذه المحبّة المسيحيّة رفقاً بالفقراء والمساكين، لا من باب البرّ الكاذب والتعالي، بل من باب ملاقاة المسيح نفسه في كلّ محروم ومعوز: «لأنّي جُعتُ فأَطعَمتُموني، عطِشتُ فسَقيتُموني، كنتُ غريباً فآويتُموني، عُرياناً فكسوتموني ومريضاً فزُرتموني» (متى ٢٥: ٣٥-٣٦). إنّ من قطع ميدان الصوم مستمدًّا من الصليب الإلهام في القول والسلوك يصحّ فيه قول السيّد، في إنجيل اليوم: «الحقّ أقول لكم إن قوماً من القائمين ههنا لا يذوقون الموت حتى يروا ملكوت الله قد أتى بقوّة». فلئن كان قول يسوع هذا ينطبق، في سياق إنجيل مرقس، على حادثة التجلّي، إلاّ أنّه ليتورجيًّا، ينطبق أيضاً على من يختتمون مسيرة الصوم التي يتوسّطها الصليب بتذوّقهم ملكوت الله آتياً بقوّة في القيامة المجيدة.

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb